

البرهان في علوم القرآن

وقيل إنما اختير للحمد لفظ الغيبة وللعبادة الخطاب للإشارة إلى أن الحمد دون العبادة في الرتبة فإنك تحمد نظيرك ولا تعبدّه إذ الإنسان يحمد من لا يعبدّه ولا يعبد من لا يحمدّه فلما كان كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة في الخبر فقال الحمد ۞ ولم يقل الحمد لك ولفظ العبادة مع الخطاب فقال إياك نعبد لينسب إلى العظيم حال المخاطبة والمواجهة على ما هو أعلى رتبة وذلك على طريق التأدب وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال الذين أنعمت عليهم مصرحاً بذكر المنعم وإسناد الإنعام إليه لفظاً ولم يقل صراط المنعم عليهم فلما صار إلى ذكر الغضب روى عنه لفظ الغضب في النسبة إليه لفظاً وجاء باللفظ متحرّفاً عن ذكر الغاضب فلم يقل غير الذين غضبت عليهم تفادياً عن نسبة الغضب في اللفظ حال المواجهة .

ومن هذا قوله الحمد ۞ الذي لم يتخذ ولداً 1 فإن التأدب في الغيبة دون الخطاب . وقيل لأنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه بالصفات العظيمة من كونه رباً للعالمين ورحمناً ورحيماً ومالكا ليوم الدين تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بأن يكون معبوداً دون غيره مستعاناً به فخطوب بذلك لتمييزه بالصفات المذكورة تعظيماً لشأنه كله حتى كأنه قيل إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لا غيرك .

قيل ومن لطائف التنبيه على أن مبتدأ الخلق الغيبة منهم عنه سبحانه وقصورهم عن محاضرتهم ومخاطبته وقيام حجاب العظمة عليهم فإذا عرفوه بما هو له وتوسلوا للقرب بالثناء عليه وأقروا بالمحامد له وتعبدوا له بما يليق بهم تأهلوا لمخاطباته ومناجاته فقالوا إياك نعبد وإياك نستعين